مقدمة

فِلِسْطين بلدة يُقدسها اليهود والمسيحيون والمسلمون؛ لِما تحمله من معانٍ دينية، فضلًا عن طبيعتها الجغرافية المهمّة التي تجعلها جِسْرًا بين قارتي آسيا وإفريقيا.

بدأ بنو إسرائيل الهاربون من ظُلْم فرعون هِجْرة كُبرى صَوْب الأرض الموعودة، وكان موسى عليه السلام قائدهم، فسيطروا على قسم كبير من المنطقة، وقد تولى داود عليه السلام حُكْم بني إسرائيل خَلَفًا لشاؤل (طالوت) أول ملوك بني اسرائيل، وفتَح القُدْس، وجعلها عاصمة للدولة، وحَكَم ثلاثة وثلاثين عامًا، وقد غادر موسى عليه السلام ومعه بنو اسرائيل سَيْناء لإقامة دولة في فِلِسْطين، ولكنه تُوفِّي في الطريق، ويرى اليهود أن فِلِسْطين هي"الأرض الموعودة" لهم.

وهذه المنطقة عند المسيحيين هي الأرض التي وُلِد فيها عيسى عليه السلام؛ ومنها رُفع إلى السماء، ودُفنت فيها أُمُّه السيدة مريم عليها السلام، وللكنائس المنْشأَة فيها ودور العبادة المقَدسة الأخرى أهمية كبرى عندهم.

وكم أثنى القرآن الكريم على القدس؛ ففيها المسجد الأقصى أولى القِبْلتين، وهي ثالث الحرمين، ولا يخفى أن المسلمين يُكِنُّون الاحترام والحبَّ لكثير من الرسل الذين كان لهم فيها مقامات وذِكْرى؛ لذلك حَظِيت تلك المناطق باهتمام خاصّ أثناء انتشار الإسلام؛ وعَقِب وفاة الرسول ﷺ وقعت عِدّة غزَوات لمحاولة فتح فِلِسْطين؛ ففتحت وأُلحِقت بالأراضي الإسلامية، وظلّت عصورًا طويلة تحت الحُكْم الإسلاميّ.

وفِلِسْطين من الناحية الدينية والعِرْقية كأنها لوحة من الفُسَيْفُساء، فكانت منذ أن فَتحَها عمرو بن العاص رضي الله عنه في عَهْد عُمَر بن الخطاب رضي الله عنه

تُمثّل العدالة والتسامح الإسلاميّ على أكمل وجه، وقد زارها الخليفة عُمَر شخصيًّا، ووقّع بنفسه اتفاقية السلام فيها، مُعْلِنًا في عَهْده العُمَريّ المشهور أنه ستتمُّ حماية غير المسلمين المُقيمين فيها من كل أنواع الضرَر وفْقا لأحكام الذِّمّيين، وأنهم سيقيمون أديانهم بحُرّية تامة.

وأصبح عَهْد عُمَر ﷺ لأهل القُدْس أُسوة لمن جاء بعده من الحُكّام المسلمين، وقد استطاع صلاح الدين الأيوبيُّ اسْتِرْداد القُدْس من الصليبيّين مرّة أخرى بعد معارك استمرّت حتى عام ١١٨٧م، وطبّق العدالة والتسامح الإسلاميّ بعينه، وأبدى كل أنواع التسهيلات للصليبين؛ خاصة النساء والأطفال ورجال الدين المسيحيّ في المدينة.

وقد تنامى التسامح الذي كان سائدًا في القُدْس في عصر الدَّوْلة العثمانيّة تناميًا أكثر من قبل، فدخل كل مجال من مجالات الحياة، وحَكَم السلاطين العثمانيّون هذه المنطقة مُتعددة الأجناس والديانات في سلام وأمان التزامًا منهم بعَهْد عُمَر ﷺ، وقد سُجّل هذا العَهْد العُمَريّ في سِجلّ "كنيسة القيامة" في الأرشيف العثمانيّ، وكذلك في الخطّ الهُمايوني (أي خطّ الملك) وسِجّلاته.

وفي عام ١٤٥٨م وَفَد أتناسيوس بَطْرِيَرْك الروم بالقُدْس هو ورُهْبانه إلى إسطنبول ليُهنئوا السلطان الفاتح بفتحها، وطلبوا منه استخدام المعابد المسيحية في القُدْس وإعفاءَها من الضرائب، وأَرَوه كُتُب العهود الممنوحة لهم من الرسول ﷺ ثم من عُمَر ﷺ ومن جاء بعده من السلاطين، وقام السلطان الفاتح أيضًا بمَنْحهم تلك الامتيازات بمرسوم هُمايوني قال فيه:

"ألا لعنة الله على من يفسَخون هذا الحُكْم".

وابتداءً من السلطان ياووز سليم طَبّق السلاطين العثمانيّون ذلك القانون، ومنحوا بعض الامتيازات التي تجعل الجميع يُمارسون شعائر

دينهم بكل حرية، غير أن هذه الامتيازات أدتْ إلى استغلالها وسوء استعمالها، وبدءًا من القرن التاسع عشر حاول اليهود والمسيحيون ذو المذاهب المتنوعة في القُدْس إقامةَ مؤسسات خاصة بهم بدعم من الدول الغربية؛ حتى يتسنى لهم تفتيت وحدة الدَّوْلة العثمانيّة.

وقد تحوّلت عقيدة العَوْدة إلى صهيون -الأرض الموعودة- بين بعض اليهود إلى حركة صهيونية سياسية، وبُذل جُهْد كبير من أجل ذلك، وقد سَرَّعت حركة مُعاداة السامية التي تطورت في روسيا وأوروبا من الهجرة إلى الأراضي الفِلِسْطينية، ولا سيما بعد عام ١٨٨٠م، حتى قام السلطان عبد الحميد الثاني -بعد أن رأى خطورة الموقف- باتخاذ التدابير التي تمنع هذه الهجرة؛ لئلا يتمَّ توطين أيّ يهودي على الإطلاق، غير أنه تعذّرتْ الحيلولة دون الهجرة اليهودية.

ومع إعلان المشروطية (الإعلان الدستوري) عام ١٩٠٨م أراد اليهود الاستفادة من مناخ الحرية، فبدؤوا بتكوين مُستعْمَرات جديدة في المنطقة بشكل مُنظّم وسريع؛ فقرّر الاتحاديُّون حَظْر توطين اليهود بفِلِسْطين كما حدَث من قبل، غير أن اليهود واصلوا الاستيطان في هذه المنطقة بطُرُق مُتنوعة، ومن ثَمّ اتخذ الاتحاديون قرارات شديدة صارمة، ونفوا بعض اليهود خارج فِلِسْطين قُبَيْل الحرب العالمية الأولى.

وفي الحرب العالمية الأولى واجهت دُوَل الحُلَفاء بقيادة إنجلترا الاتفاق العثمانيّ الألمانيّ، وسَعَتْ علانيةً أثناءَ الحرب من أجل إنشاء دولة لليهود في فِلِسْطين، ومع بَدْء الاحتلال الإنجليزي لفِلِسْطين عام ١٩١٧م أُعلن في الخطاب -الذي كتبه وزير الخارجية البريطاني بلفور "المسمى وعد بلفور" إلى اللورد روتشيلد باسم اتحاد الجمعيات الصهيونية- أن إنجلترا ترى إقامة وطن قوميّ لليهود في فِلِسْطين، وقد صدَّقت على هذا الدُّوَل العُظمى الأُخرى مثل الولايات المتحدة الأمريكية.

ومع تكرار الهجوم من قبل الإنجليز في أيلول/سبتمبر عام ١٩١٨م واحتلالهم لفِلِسْطين تمامًا، أصبحت المنطقة التي كانت خاضعة للانتداب الإنجليزي تحت سيطرة اليهود؛ لتكون وطنًا لهم، ومع أن إنجلترا ساعدت اليهود من أجل توطينهم في فِلِسْطين، إلا أن يهود تركيا قدّموا اقتراحًا لمناقشته في المجلس أثناء إجراء مُحادثات الصلح في "لوزان"، ادَّعوا فيه أن مساعدة إنجلترا لهم كانت من أجل مصلحة مُؤقّتة، وأنه يستحيل الوثوق بالإنجليز على المدى البعيد، وورد في الجلسة رقم (١٦١) من البرلمان التركي الأول برئاسة علي فؤاد باشا:

"يُلتمس -في رسالة ميشون - وانتورا وصديقيهما من مُدرّسي دار الفنون السابقين- منح انتداب دولة يهود فِلِسْطين إلى دولة تركيا؛ وذلك نظرًا لأن اليهود لن يَنْسَوا أبدًا أنهم وجدوا المَلْجأ الحقيقيّ والمَخْلص لهم في تركيا، بينما كانوا يتعرّضون منذ خمسة قرون لأنواع التضييق في كل أنحاء العالم؛ ولذلك نقترح ونلتمس منح الانتداب في فِلِسْطين إلى دولة تركيا من أجل توفير تناسب ووِفاق بين اليهود والعرب كما كان الأمر في فِلِسْطين أثناء الحُكْم التركي".[1]

وكان من الطبيعي أن عارض النُّواب مثل هذا الاقتراح بشدّة، يعني المُوافقة على توطين اليهود بفِلِسْطين، والتصديق على الخطوات التي اتخذت في سبيل إقامة دولتهم فيها، ومن ثَمّ رُفض هذا الاقتراح في المجلس.

(١) جريدة مضبطة البرلمان التركي، ج ٢٦، مطبعة البرلمان ، أنقرة ١٩٦٠م.